في العراق... بداية ونهاية الحلم الأمريكي

أ. سميرة رجب

كان للدكتور مهدي المنجرة رأي في حروب القرن الماضي، التي بدأت في منطقتنا العربية بالتحديد منذ بداية "عهد ما بعد الاستعمار"، فأطلق عليها مسمى "الحرب الحضارية الأولى"... أما حروب القرن الواحد والعشرين فوصفها بالحرب الحضارية الثانية وبأنها ستكون بداية نهاية هيمنة القطب الواحد على النظام الدولي. ("الحرب الحضارية الأولى"، الدار البيضاء-المغرب 1991).

وأكد الدكتور المنجرة، عالم الدراسات المستقبلية، بأن العالم الثالث سيكون مسرح تلك الحرب الحضارية، وأنها نتيجة حتمية لاختلال موازين العدالة والقيم الإنسانية ما بين الشمال والجنوب، ونتيجة لهيمنة منطق القوة عوضاً عن منطق الحوار بين الشعوب والأمم، ونتيجة حتمية لسياسات دول الشمال في الإصرار على أهدافها ومآربها "نظير امتصاص دماء الضعفاء" الذين يعانون ويلات الحروب بمختلف أشكالها، إضافة للحرب الاقتصادية الشعواء التي تحاصر بها دول الشمال كل دول الجنوب.

لا يحتاج الأمر، اليوم، للكثير من المعرفة والذكاء لإثبات صحة تلك الدراسة الاستشرافية التي وضعها الدكتور المنجرة مباشرة بعد انهيار منظومة النظام الدولي المتعدد الأقطاب في نهاية ثمانينيات القرن الماضي، وها هي منطقتنا العربية تعيش تلك الحرب الفاقدة لجميع القيم الأخلاقية والإنصاف والعدالة الإنسانية. حرب حضارية بين الشمال والجنوب يسودها منطق هيمنة القوة، ويغيب عنها، بسبق الإصرار والتعمد، منطق الحوار. حرب تتفرق في أسبابها ومآربها، وتتوحد في بشاعتها بالتدمير والتجويع والمذابح، والانتهاك الجماعي للحقوق الإنسانية لشعوب ومجتمعات بأكملها، في ظل تعتيم اعلامي قادر على إخفاء صورة هذه البشاعة التي تعيشها شعوب ودول كبرى في المنطقة العربية.

كانت تسعينيات القرن العشرين عقداً أمريكياً بامتياز.

ولكن في غمرة نشوة الانتصار على الاتحاد السوفييتي، ونشر حروب البلقان المأساوية التي نجحت في تفتيت الإرث السوفييتي، أخطأت الولايات المتحدة في تقدير مستقبل المجتمع الدولي وقوة الأقطاب الجديدة الصاعدة. وتصاعدَ حلم القرن الأمريكي الجديد، بنظام دولي تتربع الولايات المتحدة على قمة قطبه الأوحد.

بدأت "الحرب الحضارية الثانية" مع تفجير البرجين في نيويورك، فيما سمي لاحقاً بأحداث 11 سبتمبر 2001 الإرهابية، وقيل أن بن لادن ورفاقه (العرب المسلمون) خططوا لها وادارو عملياتها من كهوفهم السحيقة في أفغانستان، وكان إعلان الحرب على الإرهاب حينها بداية انطلاق الحرب ضد المبادئ والأخلاق والقيم الإنسانية في عالمنا العربي، لرسم خريطة جديدة للعالم الثالث تتناسب مع الطموح والحلم الأمريكي، بدءً بغزو واحتلال أفغانستان، وصولاً إلى العراق، لتمتد حروب الإرهاب بكل مسمياتها في كل المنطقة العربية التي تعيش أسوأ فتراتها تاريخيا.

إنها حرباً لا أخلاقية ليس لها نهاية، حرب تدور بموجب عقيدة المحارب الأمريكي، التي قال عنها روبرت فيسك بأنها عقيدة "تسمح بعدم انهاء أي صراع إلا بتدمير العدو تدميرا شاملا. فهي لا تسمح بالهزيمة ولا تسمح لأي شخص أبداً أن يوقف القتال" (الاندبندانت، 16/9/2006). حرب كسرت كل قواعد الحروب، التي كانت تفخر بقيم الشرف العسكري على أن "في الهزيمة، تحدي... وفي النصر، الشهامة" (ونستون تشرشل).

إذن، وبموجب عقيدة المحارب الأمريكي التي صنعها جورج بوش الابن، فإن الحرب على العراق لم تبدأ لتنتهي قبل استكمال تدمير البلاد والعباد تدميراً شاملا. لذلك بدأ مبكرا تنفيذ مخطط الاستعانة بإيران ومخزون حقدها الأسود ضد العراق، لتكون حربا إيرانية بأحزابها العقائدية الإرهابية، وجيوشها الميليشياوية الجرارة والمدججة بكل أنواع الأسلحة، ضد الشعب العراقي الأعزل، حربا بالوكالة للحفاظ على الهيبة والصورة الهوليوودية الخارقة للجيش الأمريكي، التي هزتها المقاومة العراقية الشرسة في الفترة الأولى من الاحتلال. حربا تُشغل الجميع عن سرقة ثروات وموارد وخيرات العراق النفطية والمعدنية والتاريخية. وحربا تهدد كل العرب بعقيدتها الطائفية الباطنية الدموية، وتمهد الطريق لتحقيق الحلم الأمريكي.

استعان الأمريكي بالحقد والسم الفارسي لاستكمال تدمير العراق الذي بدأ منذ أبريل/نيسان 2003، فتم تسليم العراق إلى إيران، لتصنع خلال ستة عشر سنة، تحت المظلة الأمريكية، قوتها التي تتحدى بها العالم اليوم، ونسيت أن في العراق شعب يحمل جينات الثورة والغضب العارم، عمرها يزيد على سبعة قرون، يتوارثها الأبناء عن الأجداد، جينات حققت انتصارات عراقية في أربعين حربا وغزوا عبر التاريخ، وكان آخرها في عام 1988، فلن يصعب على هذا الشعب مواجهة إيران اليوم.

و لأن للحياة سنن أقوى من كل جيوش العالم مجتمعة، فكان لابد للشعب العراقي أن يثور ضد الظلم، وضد هذا الحقد الفارسي الدموي الخالي من أدنى أنواع الرحمة وقيم العدالة الإنسانية. وبدأت هذه الثورة في 1 أكتوبر/ تشرين الأول 2019 بواسطة أصغر أجيال العراق سنا، ليعلن الشعب رفضه لكل السلطة التي صنعها الاحتلال، ورفضه للفساد الذي أفقر العراق رغم ثراءه، ورفضه للظلم والإذلال التي يعيشها العراقيين في ظل نظام حكم طائفي فاشل وفاسد ولاأخلاقي ولاإنساني... ثورة عراقية عارمة، مهما كانت نتائجها إلا أنها تبني وتؤسس قاعدة من الغضب والغليان لثورات متتالية قادمة، حتى يتجرع القائد الإيراني سم الهزيمة، كما تجرعه من سبقه.

إن ما يحدث في العراق ولبنان من ثورة كبرى ضد الوجود الإيراني لهو مؤشر واقعي على قوة المتغيرات الإقليمية، التي باتت في صميم اللعبة الدولية منذ أحداث 2011 في بلادنا العربية.. متغيرات بدأت مع وصول القوات الروسية إلى شواطئ المتوسط السورية، الذي أعاد روسيا للساحة الدولية كقوة عظمى، والذي كان بمثابة الإعلان عن نهاية حلم القرن الأمريكي الجديد، ومشروع القطب الأمريكي الأوحد... وبداية انطلاق الصراع الجديد في تشكيل نظام دولي لم يتحدد معالمه حتى الآن... ولكن من المؤكد لن يكون أمريكيا بأي شكل من الأشكال.

ومع صعود العملاق الصيني سقط المشروع الأمريكي للأبد، وبات الصراع أكثر احتداماً على شكل النظام الدولي القادم.

فيا ترى هل سينهي العراقيون هذه "الحرب الحضارية" الشرسة في العراق، كما بدأت هناك، أم أن عقيدة المحارب الأمريكي اللاإنسانية واللاأخلاقية، ستبقي هذه الحرب مستمرة ما دامت تلبي طموحاتها... هذا ما سيحدده أبطال ثورات الغضب الذين عاشوا وعانوا من سطوة الحروب الأمريكية والأحقاد الإيرانية... وسيبقى العراق عبر التاريخ البوابة والحصن الذي يحمي المنطقة أمام جحافل كل الغزاة، و أولهم إيران.

■ كاتبة عربية من البحرين